

وفي تلك السنة ذاتها وقع يوري أخو القيصر الصغير مريضاً ثم غادر الحياة وأقيمت له في الكريملين جنازة حافلة بدا فيها إيفان شديد التأثر . كان يوري عطوفاً محباً ولم يقف قط في وجه أخيه لأنه لم يكن طموحاً ولا ذكياً ، كما كان موالياً وصديقاً ممتازاً للقيصرة أناستاسيا . أما زوجته أوليانا فكانت امرأة سالحة جدا وتكاد تشبه أناستاسيا في سلوكها وتصرفاتها . وبعد وفاة زوجها دخلت الدير عن رغبة منها وطواعية ، ولكن القيصر فرش لها مقصورتها فرشاً باذخاً كما لو أنه لم يشأ أن تضحي بطيبات هذا العالم . ووجب على أخت الإحسان المتواضعة أن يكون لها بلاط وحاشية حتى ولو كانت تسكن مقصورة في دير . إلا أن أوليانا كان لها عناد المتدنية الناعمة فاعترضت على محبة القيصر المفرطة فكان أن اغتاظ وغضب غضباً شديداً وأمر بقتلها .

ثم وجهت التهمة للأمير فلاديمير اندرييفتش بعدم الولاء . وقد استخدموا لذلك كلمة نيبرافدا *Nepravda* التي يمكن ترجمتها بالنفاق أو عدم الصدق ، وشمل الاتهام امه أفروسين أيضاً . ولكن القيصر سامحه بفضل تدخل عدد كبير من الأشخاص على أن ينسحب الأمير الى ممتلكاته في ستاريتسا وأن يبدل حاشيته بحيث يستطيع إيفان أن يتلقى معلومات جديدة بالثقة عن أعماله ونواياه . وهكذا يكون القيصر قد قام بعمل متناقض وغريب بأن يظهر له محبته وعطفه في الوقت الذي يضعه فيه تحت المراقبة ثم يذهب بين الحين والآخر الى ستاريتسا مدعواً الى ولائمه .

وكان إيفان في تلك الفترة يتسلح دائماً بعصا طويلة من الخشب تنتهي بسن من الفولاذ . كانت عصا ضخمة طولها مائة وعشرون سنتمترأ ذات حربة ثقيلة ومقبض حسن النقص ، وقد اعتاد القيصر أن يضرب الناس بهذه الحربة فيؤدي بهم الحال أحياناً الى الموت . ولم يكن أحد يدري مسبقاً ما إذا كان القيصر غاضباً أو حسن المزاج . وقد بدأ بأن يكون ذا نزوات إجرامية ، وبدأ الخوف الأكبر منه في عام ١٥٦٣ وهو التاريخ الذي بدؤوا يطلقون عليه فيه لقب الرهيب « *Le Terrible* » . ولم يؤد